شرح كتاب (الرد على الجهمية) لعثمان بن سعيد الدارمي-رحمه الله.

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (٢)

قال أبو سعيد- رحمه الله: [فنشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، اصطفاه لوحيه، وانتجبه لرسالته، واختاره من خلقه لخلقه، فأنزل عليه كلامه المبين، وكتابه العزيز الذي ((لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ))[فصلت:٤٢]، ((قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ))[الزمر:٢٨]، ((يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ))[الإسراء:٩]. فيه نبأ الأولين، وخبر الآخرين، لا تنقضي عبره، ولا تفنى عجائبه، غير مخلوق، ولا منسوب إلى مخلوق، ((نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ))[الشعراء:١٩٣-١٩٤]، من لدن حكيم عليم. وقال: ((وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ))[النمل:٦]، وقال: ((نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ))[الشعراء:١٩٣-١٩٥]. من قال به صدق، ومن تمسك به هدي إلى صراط مستقيم، ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ((وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا))[الإسراء:١٠٦]، فقرأه كما أمر، دعا إليه سراً وجهراً، فلما سمع المشركون آيات مبينات قالوا: ساحر وكاهن، وشاعر، ومعلَّم مجنون، ((وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلاقٌ))[ص:٦-٧]، ((إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ))[المدثر:٢٥]، ((لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ))[الأنفال:٣١]، وقالوا ((إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ))[الفرقان:٤]،

((وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا))[الفرقان:٥]، ((إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ))[النحل:١٠٣]، مخلوق بكلام مخلوق مختلق.

فكذَّب الله عزَّ وجل قولهم، وأبطل دعواهم؛ فقال تعالى: ((فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا))[الفرقان:٤]، وقال تعالى: ((قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا))[الفرقان:٦]، وقال تعالى: ((قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ))[النحل:١٠٢]، وقال: ((لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ))[النحل:١٠٣]، ثم قال: ((لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا))[الإسراء:٨٨].

ثم ندبهم جميعاً إلى أن يأتوا بمثله تخرصاً وتعلماً من الخطباء والشعراء وغيرهم إن كانوا صادقين؛ فقال تبارك وتعالى: ((فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ))[هود:١٣]، ويأتوا بسورة مثله].

وأتوا بسورة مثله. على نسق ما قبلها، يعني: من باب التحدي.

[وأتوا بسورة مثله، ((وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ))[البقرة:٢٣-٢٤].

فلم يقدر الجن والإنس عربها وعجمها، من عبدة الأوثان، وعلماء أهل الكتابين أن يأتوا بسورة، ولا ببعض سورة، ولو علموا أنّهم قادرون عليها لدعوا شهداءهم إلى ذلك، وبذلوا فيها الرغائب من أموال وغيرها لخطبائهم وشعرائهم، وأحبارهم، وأساقفتهم، وكهنتهم وسحرتهم أن يأتوا بسورة مثلها، تصديقاً لما ادعوا من الزور تكذيباً بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأنى يأتي المخلوق بمثل كلام

الخالق؟ وكيف يقدر عليه؟ وقد قال الله تعالى: ((وَلَنْ تَفْعَلُوا))[البقرة:٢٤]، فلن تفعلوا إلى يوم القيامة، كما أنَّه ليس كمثله شيء فليس ككلامه كلام].

بعد أن استهل المصنف كتابه بحمد الله تعالى ثنَّى بالشهادة بلا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، ثم أفاض في تعظيم وتفخيم النبي والقرآن، وفي كتاب الله تعالى القرن بين النبي والقرآن في مواضع عدَّة، وذلك أنَّ كمال هذا الدين إنَّما حصل بتنزيل القرآن العظيم على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، فالنبوة إنَّما حصلت بنزول الوحي العظيم على قلب النبي الأمين، ((نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ))[الشعراء:١٩٣-١٩٥]، وهذا المعنى يجب أن يقوى في نفس كلِّ مؤمن، وأن يفخِّم هذا القرآن، وأن يعظِّم هذا النبي، حتى لا يقوم لمقامه في نفسه، يقول الله عز وجل: ((لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ))[البينة:١]، ما البينة؟ ((رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً))[البينة:٢]، اجتماع هذين الأمرين هو البينة، فالبينة ليست القرآن ولا النبي وحده، بل باجتماع الأمرين، ((رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ))[البينة:٢-٣].

وذكر الشيخ رحمه الله الآيات التي تحدى الله تعالى بها الناس عربهم وعجمهم، مشركهم وكتابيهم في أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فعجزوا عن أن يبلغوا ذلك، فعُلم أنَّ هذا هو الحق، وأنَّ ما أتى به محمد صلى الله عليه وسلم وحي يوحى، كلام ليس كأي كلام يجب أن يؤخذ مأخذ القبول والالتزام والتسليم والاطمئنان، وأن لا يزهد الإنسان فيه بكلام أحد من البشر.

وكلُّ هذه المقدمة إيحاءات وتعريض بأهل البدع الذين زهدوا بكلام الله، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، وتعلَّقوا بأوهام الضالين من الفلاسفة والمتكلمين، فالشيخ هاهنا يعظِّم أمر هذا القرآن وأمر السنة، حتى تقوى في قلب المؤمن فلا يقدِّم عليها قول كائن من كان، ولا يقدِّم عليها رأياً ولا قياساً، وهو مستمر في عرضه ليصل إلى مقصوده.

فقال بعد ذلك: [فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوا الناس إلى الله وإلى كتابه وكلامه سراً وجهراً، محتملاً لما ناله من أذاهم، صابراً عليه، حتى أظهره الله وأعزه، وأنزل عليه نصره، فضرب وجوه العرب والعجم بالسيوف، حتى ذلوا ودانوا، ودخلوا الإسلام طوعاً وكرهاً، واستقاموا حياته وبعد وفاته، لا يجترئ كافر ولا منافق متعوذ بالإسلام أن يظهر ما في نفسه من الكفر وإنكار النبوة، فَرَقاً من السيف، وتخوفاً من الافتضاح، بل كانوا يتقلبون مع المسلمين بغم، ويعيشون فيهم على رغم، دهراً من الدهر، وزماناً من الزمان.

وكان أول من أظهر شيئاً منه بعد كفار قريش: الجعد بن درهم بالبصرة، وجهم بخراسان، اقتداءً بكفار قريش، فقتل الله جهماً شر قتلة، وأما الجعد فأخذه خالد بن عبد الله القسري فذبحه ذبحاً بواسط، في يوم الأضحى على رؤوس من شهد العيد معه من المسلمين، لا يعيبه به عائب، ولا يطعن عليه طاعن، بل استحسنوا ذلك من فعله، وصوبوه من رأيه].

طبعاً وكان قتل الجعد سابقاً لقتل الجهم بن صفوان، فالجعد قُتل سنة (١١٩هـ)، والجهم سنة (١٢٨هـ)، قتله سلم بن أحوز صاحب شرطة نصر بن سيار، هذا الجهم بن صفوان، أما الجعد فإليكم قصته.

[حدَّثنا القاسم بن محمد البغدادي، حدَّثنا عبد الرحمن بن محمد بن حبيب بن أبي حبيب، عن أبيه، عن جده حبيب بن أبي حبيب قال: خطبنا خالد بن عبد الله القسري بواسط يوم الأضحى].

عندي بالتنكير (يوم أضحى).

[يوم أضحى فقال: "أيها الناس ارجعوا فضحوا، تقبل الله منا ومنكم؛ فإني مضح بالجعد بن درهم، إنَّه زعم أنَّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، وتعالى الله عما يقول الجعد بن درهم علواً كبيراً". ثم نزل فذبحه].

هذه القصة قصة مشهورة في الواقع، وإن كان إسنادها هاهنا ضعيف، وممن رواها البخاري رحمه الله في "خلق أفعال العباد"، وغيره، فهي من القصص الإخبارية المشتهرة، ولا يبعد أن تكون واقعة وإن لم تُنقل بسند صحيح من الناحية الحديثية، فإنَّ الجعد قد أنكر وصفين من صفات الله عز وجل: أنكر صفة الكلام، وأنكر صفة المحبة، فحين يقول: إنَّه ما كلَّم موسى تكليماً، قد أنكر صفة الكلام، وحين يقول: إنَّه ما اتخذ إبراهيم خليلاً قد أنكر صفة المحبة؛ لأنَّ الخلة هي أعلى المحبة، فكان أمير العراقين خالد بن عبد الله القسري له بالمرصاد، فاستتابه، فلما أصرَّ على مقالته ضحَّى به يوم عيد أضحى، وقال ابن القيم في هذه الواقعة، قال:

ولأجل ذا ضحَّى بجعد خالد الـ ـقسري يوم ذبائح القربان

إذ قال إبراهيم ليس خليله كلا ولا موسى الكليم الداني

شكر الضحية كلُّ صاحب سنة لله درك من أخي قربان

ثم قال: [قال أبو سعيد: لم يزالوا بعد ذلك مقموعين، أذلةً مدحورين، حتى كان الآن بآخره].

بأخرة.

[بأخرة، حيث قلَّت الفقهاء، وقُبض العلماء، ودعا إلى البدعة دعاة الضلال، فشدَّ ذلك طمع كل متعوذ في الإسلام، من أبناء اليهود والنصارى وأنباط العراق، ووجدوا فرصةً للكلام، فجدوا في هدم الإسلام، وتعطيل ذي الجلال والإكرام، وإنكار صفاته، وتكذيب رسله، وإبطال وحيه، إذ وجدوا فرصتهم، وأحسوا من الرعاع جهلاً، ومن العلماء قلةً، فنصبوا عندها الكفر للناس إماماً بدعوتهم إليه، وأظهروا لهم أغلوطات من المسائل، وعمايات من الكلام، يغالطون بها أهل الإسلام، ليوقعوا في قلوبهم الشك، ويلبسوا عليهم أمرهم، ويشككوهم في خالقهم، مقتدين بأئمتهم الأقدمين، الذين قالوا: ((إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ))[المدثر:٢٥]، ((إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلاقٌ))[ص:٧]].

هذا الذي ذكره الدارمي رحمه الله قد وقع في هذه الأمة، ولا سيما بعد انفتاح ترجمة كتب اليونان، فإنَّه في مطلع المائة الثالثة انفتح باب تعريب كتب اليونان، ونُقلت كتبهم في مختلف الفنون، ومنها الفلسفة والمنطق، فأثر ذلك على عقول بعض أهل الإسلام، وتلقفوه، واتخذوا من المنطق آلة يقيسون بها الحقائق، وتركوا طريقة المحدِّثين التي تعتمد على حفظ النصوص وروايتها ودرايتها والأخذ بها، فاستعملوا هذه المقاييس العقلية للوصول إلى الحقائق العقدية، فضلوا وأضلوا، وكان ذلك شديداً، وحصل لهم تمكين، الدارمي رحمه الله ولد نحو سنة مائتين، وتوفي سنة مائتين وثمانين للهجرة، فكان ذلك بعد أن عُرِّبت كتب اليونان وأثَّرت في كثير من الناس، وتمكَّن المعتزلة أن يصلوا إلى كثير من مبتغاهم، وأثَّروا على المأمون العباسي حتى أظهر مقالتهم وامتحن الناس بسببها، وجرى ما جرى مما لا يخفى، فلأجل ذلك انتدب أهل السنة للرد على هذه البدعة، فقال أبو سعيد:

[فحين رأينا ذلك منهم، وفطنا لمذهبهم، وما يقصدون إليه من الكفر وإبطال الكتب والرسل، ونفي الكلام والعلم والأمر عن الله تعالى، رأينا أن نبيِّن من مذاهبهم رسوماً من الكتاب والسنة وكلام العلماء، ما يستدل به أهل الغفلة من الناس على سوء مذهبهم، فيحذروهم على أنفسهم وعلى أولادهم وأهليهم، ويجتهدوا في الرد عليهم، محتسبين منافحين عن دين الله تعالى، طالبين به ما عند الله].

رحمه الله، وهذا هو الواجب على أهل العلم في كلِّ جيل وقبيل أن إذا رأوا البدعة قد استطار شررها، وعمَّ خطرها، أن ينتصبوا لردّها واطفائها، والذب عن السنة، أما إذا كانت البدعة غير ظاهرة فلا ينبغي الاشتغال بها لئلا تشتهر، فإنَّ بعض المجتهدين ربما صار يتتبع كل مقالة، ويشهرها ويذيعها، فيكون في ذلك من الفساد أعظم مما لو هُجرت وأُميتت، فلذلك كان السلف لهم طريقان في التعامل مع البدع: مع البدعة إذا لم تكن ظاهرة، فيميتوها بهجرها وهجر أصحابها، ومع البدعة إذا كانت ظاهرة فاشية فينتدبوا للرد عليها والتحذير من دعاتها، فيجب على أهل العلم ذلك دوماً، وأن يكونوا

على وعي ودراية بما يجري حولهم، والبدع تتنوع وتتجدد، فعلى كل فقهاء جيل أن يعرفوا من أين يؤتى الإسلام، فيردوا على من أراد نقضه وحلَّ عراه.

ثم قال: [وقد كان من مضى من السلف يكرهون الخوض في هذا وما أشبهه، وقد كانوا رُزقوا العافية منها، وابتلينا بهم عند دروس الإسلام، وذهاب العلماء، فلم نجد بداً من أن نردَّ ما أتوا به من الباطل بالحق].

وهذه القطعة تبيِّن الفرق في التعاطي مع البدع وأهلها بسبب اختلاف الأحوال، فهو أشار رحمه الله إلى أنَّ بعض من تقدمه من السلف كانوا يكرهون الخوض في هذه المسائل، ويعرضون عنها، ولكنه رأى أنَّهم كانوا في عافية، وأنَّ الأمر لم يبلغ مبلغ التصدي لها، وأنَّ الحال قد اختلف، فأدى به فقهه وفقه من كان في طبقته إلى أن يردوا عليهم، فلكلٍّ مقام مقال.

[فلم نجد بدًّا من أن نردَّ ما أتوا به من الباطل بالحق، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف ما أشبه هذا على أمته، ويحذرها إياهم، ثم الصحابة بعده والتابعون، مخافة أن يتكلموا في الله وفي القرآن بأهوائهم فيضلوا، ويتماروا به على جهل فيكفروا، فإنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال: {المراء في القرآن كفر}، وحتى إنَّ بعضهم كانوا يتقون تفسيره، لأنَّ القائل فيه إنَّما يقول على الله. قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أيّ أرض تقلني، وأيّ سماء تظلني، إذا قلت في كلام الله ما لا أعلم. وسئل عبيدة السلماني عن شيء من تفسير القرآن، فقال: اتق الله، وعليك بالسداد، فقد ذهب الذين كانوا يعلمون فيما أنزل القرآن.

فهذا الصديق خير هذه الأمة بعد نبيها، والخليفة بعده، قد شهد التنزيل، وعاين الرسول، وعلم فيما أُنزل القرآن، إلا ما شاء الله، ويتقي].

ويتوقى أن يقول في القرآن.

[ويتوقى أن يقول في القرآن، مخافة أن لا يصيب ما عنى الله فيهلك، ثم عبيدة السلماني بعده، وكان من كبار التابعين، فكيف بهؤلاء المنسلخين من الدين والعلم، الذين ينقضونه نقضاً، ويفسرونه بأهوائهم خلاف ما عنى الله، وخلاف ما تحتمله لغات العرب].

عندي: الذين ينتقحونه نقحاً. يقول: (ينتقحونه) نقح العظيم: استخرج مخه، كنقحه وانتقحه: قشره.

[ولقد قال بعض أهل العلم: لا تهلك هذه الأمة حتى تظهر فيهم الزندقة، ويتكلموا في الرب تبارك وتعالى.

حدَّثناه سويد بن سعيد الأنباري، حدَّثنا خلف بن خليفة، عن الحجاج بن دينار، عن منصور بن المعتمر، قال: ما هلك دين قط حتى تخلف المنانية، قلت: وما المنانية؟ قال: الزنادقة].

المنانية يُنسبون إلى ماني وهو من فارس من المجوس، وماني كان يقول بإلهين إله النور يخلق الخير، وإله الظلمة يخلق الشر، فيقال عنهما: المانوية، والمنانية، ونحو هذه الألفاظ، وهم زنادقة بلا ريب.

[وحدَّثنا محمد بن كثير العبدي، قال: أنبأ سفيان يعني الثوري، عن سالم يعني ابن أبي حفصة، عن أبي يعلى، عن محمد ابن الحنفية رضي الله عنه قال: لا تنقضي الدنيا حتى تكون خصومتهم في ربهم.

وحدَّثناه يحيى الحماني، (قال): حدَّثنا عمرو بن ثابت، عن سالم بن أبي حفصة، قال أبو سعيد: وأحسبه عن أبي يعلى منذر الثوري، عن محمد ابن الحنفية، قال: إنما تهلك هذه الأمة إذا تكلمت في ربها.

حدَّثنا الحسن بن الصبَّاح البزار، (قال): حدَّثنا علي بن الحسن بن شقيق، عن ابن المبارك، قال: لأن أحكي كلام اليهود والنصارى أحب إلي من أن أحكي كلام الجهمية.

حدَّثنا سهل بن بكار، (قال): حدَّثنا أبو عوانة، عن عمرو بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {لا يزالون يسألون حتى يقال لأحدكم: هذا الله خلقنا، فمن خلق الله تبارك وتعالى؟} قال أبو هريرة: وإني لجالس ذات يوم إذ قال رجل من أهل

العراق: يا أبا هريرة هذا الله خلقنا، فمن خلق الله تبارك وتعالى؟ قال أبو هريرة: فوضعت أصبعي في أذني، وصرخت: صدق الله ورسوله، الله الواحد الأحد الصمد ((لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ))[الإخلاص:٣-٤].

وحدَّثناه يحيى بن بكير المصري، حدَّثنا الليث يعني أبي سعيد، عن عقيل، عن ابن شهاب، قال: أخبرني عروة بن الزبير، أنَّ أبا هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {يأتي الشيطان العبد فيقول له: من خلق كذا وكذا؟ حتى يقول له: من خلق ربك؟ فليستعذ بالله ولينته}.

حدَّثنا علي بن المديني، حدَّثنا سفيان، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق السماء؟ فيقول: الله عز وجل، فيقول: من خلق الأرض؟ فيقول: الله، فيقول: من خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل: آمنا بالله}.

حدَّثني أحمد بن منيع، (قال): حدَّثنا محمد بن مُيَسَّر أبو سعد، (قال): حدَّثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب، أنَّ المشركين قالوا: يا رسول الله، انسب لنا ربك، قال: فأنزل الله عز وجل: ((قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ))[الإخلاص:١-٢]، قال: فالصمد: الذي ((لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ))[الإخلاص:٣]، لأنَّه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإنَّ الله لا يموت ولا يورث. ((وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ))[الإخلاص:٤]، قال: لم يكن له شبيه، ولا عدل، وليس كمثله شيء.

حدَّثنا موسى بن إسماعيل، (قال): حدَّثنا أبو هلال وهو الراسبي (قال): حدَّثنا رجل، أنَّ عبد الله بن رواحة قال للحسن: هل تصف ربك؟ قال: نعم، بغير مثال.

حدَّثنا أبو سلمة، (قال): حدَّثنا عبد الواحد يعني ابن زياد، (قال): حدَّثنا سالم، يعني ابن أبي حفصة، (قال): حدَّثنا منذر أبو يعلى الثوري، قال محمد ابن الحنفية: إنَّ قوماً ممن كانوا قبلكم أوتوا علماً كانوا يكيفون فيه].

كانوا يكتفون فيه.

[كانوا يكتفون فيه، فسألوا عما فوق السماء، وما تحت الأرض فتاهوا، كان أحدهم إذا دُعي من بين يديه أجاب من خلفه، وإذا دُعي من خلفه أجاب من بين يديه.

قال أبو سعيد: ولولا مخافة هذه الأحاديث وما يشابهها، لحكيت من قبيح كلام هؤلاء المعطلة وما يرجعون إليه من الكفر حكايات كثيرة، يتبين بها عورة كلامهم، وتكشف عن كثير من سوءاتهم، ولكنا نتخوف من هذه الأحاديث، ونخاف أن لا تحتمله قلوب ضعفاء الناس، فنوقع فيها بعض الشك والريبة، لأنَّ ابن المبارك قال: لأن أحكي كلام اليهود والنصارى أحب إلي من أن أحكي كلام الجهمية.

وصدق ابن المبارك، إنَّ من كلامهم في تعطيل صفات الله ما هو أوحش من كلام اليهود والنصارى، غير أنا نختصر من ذلك ما نستدل به على الكثير إن شاء الله تعالى].

نبَّه رحمه الله تعالى على أمرين:

أحدهما: تورع أهل الإيمان من الخوض في هذه المسالك الوعرة، وأنَّهم كانوا يتقون الكلام فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته، ولا يخرجون عن قراءة القرآن والحديث، لا يزيدون عن ذلك مخافة أن يزل أحدهم بكلمة، وإذا سئلوا عن تفسير كتاب الله تعالى كانوا يستدفعون هذا، وهذا يدل على كمال ورعهم، غير أنَّهم ما كانوا يمنعون العلم، وإنما ربما يحيل بعضهم إلى بعض، فإنَّ كتم العلم كما هو معلوم من المحرمات.

وأما المسألة الثانية: فهي مسألة أيضاً فيها ملحظ لطيف، وهو أنَّه كلما بعُدت البدعة عن زمن النبوة غلظت واشتدت، فكانت البدع التي في أول الإسلام من الخروج والتشيع والإرجاء والقدر دون بدعة التجهم، التجهم جاءت بعد ذلك، ولذلك كانت أشد غلظاً، لأنَّها تعلقت بالله تعالى وأسمائه وصفاته، فلم يكن متاحاً لها أن تظهر في مبدأ الأمر، وذلك لقوة ظهور الحق، وإنما اشتغل الناس في مسائل الكفر والإيمان وغير ذلك من الأمور التي لا تتعلق بذات الله، فلما طال العهد واتصل البُعد حينئذ وقعوا - والعياذ بالله - في هذا الحمى الخطير، وتكلم هؤلاء في أسماء الله وصفاته وذاته، وساق رحمه الله جملة من الآثار الدالة على أنَّ هذه الخاطرات والواردات إنَّما هي مستمدة من وحي الشياطين، وذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف أنَّ الشيطان يأتي ابن آدم ويسوِّل له، ويقول له: هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله؟ ومثل هذه الخطرات قد يبتلى بها العبد، لكن إن كان الله تعالى قد وهبه إيماناً وتقى وورعاً استعاذ بالله وانتهى، كما أرشده النبي صلى الله عليه وسلم {فليستعذ بالله ولينته}، وأما إن كان في قلبه زيغ فإنَّه لا يزال يتبع المتشابه حتى يوسِّع رقعة الضلالة، ويفوه بكلام يبلغ به الكفر، وهذا هو ما وقع في الجهمية، فإنَّهم ما زالوا يتراجعون في الكلام في هذه المسائل حتى أدى بهم ذلك إلى التعطيل المحض، فهذه علامة شؤمهم. والعياذ بالله.

ولعلنا نكتفي بهذا القدر في قراءة هذه الليلة، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.